

الثور والحمار في أيقونة الميلاد

الخورية سميرة عوض ملكي

في أيقونة الميلاد، يظهر الطفل يسوع المسيح وأمه في كهف محاط بصخور حادة يصعب السير عليها، وذلك لتعكس صورة العالم القاسي الذي وُلد فيه يسوع. تذكر الأناجيل أن يوسف ومريم لم يتمكنوا من العثور على غرفة في أي نزل عندما أتيا للمشاركة في الإحصاء السكاني في بيت لحم، ولذلك وُضع يسوع في مذود، وهو حوض لإطعام الحيوانات، كان شائعاً في ذلك الوقت، إذ لم تكن الحيوانات تُجمع في حظائر، بل في الكهوف والشعاب في التلال، ولذا يظهر هذا "الإسطل" في الأيقونة.

في السماء يظهر نجم ينزل شعاعاً واحداً نحو الطفل يسوع. هذا النجم يتبعه المجوس، حكماء فارس من الشرق، وهم يحملون هدايا للمسيح. لكنهم يصوّرون بعيدين، أي لا يزالون في رحلتهم ولم يصلوا بعد. في السماء أيضاً حشد من الملائكة يبشرون بميلاد مخلص العالم.

على اليمين، الرعاة الذين كان يهود ذلك الزمان يعتبرونهم غير مُحترَمين في مجتمعهم، هم أول من وصلته بشرى ولادة يسوع. لكنهم يظهرن أيضاً خارج الكهف، أي إلى جانب قطعانهم ولم يصلوا إلى عند المسيح بعد. إلى جانب والدة الإله، تظهر الشركة الوحيدة التي جمعها يسوع المسيح في الساعات القليلة الأولى من حياته الأرضية. إنها ثور وحمار متواضعان. غياب الملتقنين حول يسوع ووجود الحيوانين إشارة إلى تواضع التجسد الإلهي على الأرض.

في التفاصيل، أن وجود الثور والحمار في أيقونة الميلاد وهما يوفران الدفء ليسوع بأنفاسهما، يشير إلى تحقق إحدى نبوءات العهد القديم العديدة " أَلْتَوُرُّ يَغْرِفُ قَانِيَهُ وَالْحِمَارُ مَغْلَفٌ صَاحِبِهِ" (إشعياء ١:٣).

الحقيقة هي أنه لا يوجد حمار أو ثور في روايات ميلاد المسيح في الكتاب المقدس. مع هذا، إن أقدم مثال معروف لأيقونات الميلاد يحتوي فقط على المسيح المقمط في المذود يحيط به ثور عند رأسه وحمار عند قدميه وهو في جدارية على ناووس في إيطاليا من القرن الرابع. ويظهر أن الحيوانين، الثور والحمار، يقدمان له العبادة بلا انقطاع. يرى المفسرون أن هذه الصورة تتم قول النبي حبقوق: "بين حيوانين تظهر".

ما هي العلاقة بين الثور والحمار؟ نقرأ أن في التقليد يُنظر إلى الثور على أنه إسرائيلي، والحمار أنه الأمم. يأتي هذا من تمييز مهم للغاية في العهد القديم: الثور حيوان "طاهر"، والحمار حيوان "نجس". إن الخلط بين الطاهر والنجس مرتبط بشدة باختلاط اليهود بالأمم. في الواقع، هناك قانون موسوي قد يحمل أحد المفاتيح: لا يجوز لك الحرث على الثور والحمار معاً. أي أنه محظور، وضع النير على الطاهر وغير الطاهر، والجمع بين "الداخل" و"الخارج". في التفسير أن هذا لا يمكن أن يتم من دون خطيئة إلا بالمسيح، الكلمة المتجسد. حتى الرسول بولس يتبنى هذا التقليد ويستخدم الصورة نفسها لتحذير المسيحيين من "النير" مع غير المؤمنين في ٢ كورنثوس ١٤:٦ "لَا تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهُ أَيْتُهُ خِلْطَةٌ لِلْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟".

وهنا يبرز معنى آخر يتعلق بالتجسد وعلاقته بعالمية الكنيسة. الحمار هو حيوان للتحميل، قوة حُلِّقتْ للتحمل. وعلى هذا الأساس، يكون الحمار رمزاً للجسدانية نفسها. ليس مفاجئاً أن رمز النجاسة وما هو خارجاً، يشبه الوجود الجسداني الساقط والشهوانية. يظهر هذا بقوة في تعليم التقليد الهدوئي عن العلاقة بين القلب والحواس. فالجزء الخارجي الجسدي، أي الحواس، مرتبط بالأقمطة الجلدية، التي تحمي ولكنها أيضاً تحمل ما هو ثمين. لذلك من الطبيعي أن ينظر المفسرون، كالقديس إيرينيوس، إلى قصص مثل قصة حمار بلعام الناطق (العدد ٢٢-٢٤)، على أنها إشارات مسبقة للتجسد. أو من المهم أيضاً أن نرى المسيح يمتطي الحمار (الشعائين). إن هذه الصور، من العهد القديم والجديد، تشبه وضع الحمار مع الثور في أيقونة الميلاد، وهي صورة رمزية عن ضم النقيضين، اتحاد الروحي والجسدي، الطاهر وغير الطاهر، الداخل والخارج، وفي النهاية غير المخلوق والمخلوق في شخص ربنا يسوع المسيح.

Sources:

- The Nativity Icon. A Reader's Guide to Orthodox Icons. <https://iconreader.wordpress.com/2010/12/24/the-nativity-icon/>
- Nativity of our Lord. The Fresco Project: Scriptural and Theological explanation of each fresco. Holy Trinity Orthodox Church. Serbian Orthodox Patriarchate. Butte, MT. <https://holytrinitybutte.org/fresco>
- Jonathan Pageau (2012). The Ass and The Ox in The Nativity Icon. The Orthodox Art Journal. December 24, 2012. <https://orthodoxartsjournal.org/why-an-ass-and-an-ox-in-the-nativity-icon/>